النظريات العلمية في القرآن

بقلم الدكتور حسين الهراوى

تشتمل هذه الرسالة على المقالات التى نشرها الدكتور الهراوى تحت هذا العنوان فى مجلة الأنصار فى سنتى ١٣٦٠ و ١٣٦١ الهجريتين ، مضافاً إليها تتمة هذا البحث وهى فصول قيمة لم تنشر بعد . وقد كتب مقدمة الرسالة الأستاذ العالم الدكتور على توفيق شوشة بك

النظريات العلمية في القرآن

بقلم الدكتور حسين الهراوى

تشتمل هذه الرسالة على المقالات التي نشرها الدكتور الهراوى تحت هذا العنوان في مجلة الأنصار في سنتي ١٣٦٠ و ١٣٦١ الهجريتين ، مضافاً إليها تتمة هذا البحث وهي فصول قيمة لم تنشر بعد . وقد كتب مقدمة الرسالة الأستاذ العالم الدكتور على توفيق شوشة بك

إهداء المؤلف

[أهدى هـذه الرسالة لمنبع هذا
البحث ، والعامل على ثقافتى بهذه
الروح التى أسبغت على النفس إيمانها
وتقواها ...
أهديها لأخى الشاعر محمد الهراوى]

كلمة « الأنصار » إلى قرائها :

يسر مجلة « الأنصار » التى تصدر لخدمة الفكرة العربية والثقافة الإسلامية أن تكون أول هداياها إلى قرائها هذه الرسالة الطريفة التى وضعها الدكتور حسين الهراوى بعنوان « النظريات العلمية فى القرآن » .

هذا الموضوع لم يتناوله فى العصر الحديث كتّاب كثيرون ، فهو من الموضوعات المُغْلَقة فى دائرة الثقافة الإسلامية العصرية ، بل هو فى اعتقادنا الموضوع الأول الذى سيتولد منه فى مستقبل هذه الثقافة إشعاعٌ قوى شديد .

كان العلم منذ لاح فجر هذا العصر المادى بقيادة أوربا هو الصخرة الناتئة العنيدة التى انكسرت عليها سفينة الدين الذى اعتنقه الأوربيون ، والذى قاتلوا باسمه طويلاً ، فأغرقوا بلاد الشرق من دمائهم ودماء ضحاياهم مسحورين بنفوذ رجاله . لقد كانت هزيمة الصليبيين أشبه بضربة الفأس على الأرض الطيِّعة ، فأفاق النائمون فى أوربا إلى قوةٍ فى نظام الحكم ، وفى تقاليد الحرب ، وفى وجدان النفس ، وفى تقديس العلم ، لم يكونوا منها على شىء ؛ وبدأت نُذُر الثورة تتجمع فى أعقاب هذه الهزيمة حتى انفرجت آفاق تلك البلاد عما يسمونه « عصر النهضة » ، ومنذ ذلك الحين تقدمت «العلوم» مخترقةً الحُجُب بأنوارها الكاشفة، فلم تثبت أمامها طويلاً أساطير الكهنة فى تفسير مظاهر الكون ، وظهرت الكتابات المقدسة

بمـا ورد فيها من العلوم المجهولة والحقائق المزعومة والأرقام الخيالية أشبه بإنشاء الأطفال منها بعمل يستحق الاحترام ، بله العناية والاهتمام . وهكذا أصبح اللواء نهائياً فى يد العلم .

ولما كان الأوربيون ، الذين هدم العلم عقائدهم ، هم الذين سادوا فى نفس الوقت كثيراً من الممالك الإسلامية بعد انحلالها ، كان من الطبيعى ، بل كان ممـا اجتهد فيه الأوربيون كثيراً ، أن يغرسوا هذا الرأى الخطير فى نفوس المسلمين بالنسبة للدين الإسلامى .

ولـكن العلم الصادق يأبى بطبعه أن يبشّر بغير الحقيقة ، والحقيقة فى جميع مظاهرها روح هذا الدين الإسلامى ، ومصدر قوته ، وسر امتداده واندفاعه وتجدده . وهكذا جاء تقدم العلم السريع فى كافة النواحى مخيّباً لآمال هؤلاء «المنفّرين» . فالعلم الحديث لم يصطدم بالإسلام ، وإنما تلاشى فيه . والعلم لم يختلف مع القرآن فى أى نص من النصوص ، وعلى أى وجه من الوجوه ، كما اختلف صراحة مع الـكتب[1] التى فى أيدى اليهود والنصارى ، وإنما ازداد العلم نوراً فى نور القرآن ، واستمد ثباتاً من ثباته ، والتقى به ـ على الدوام ـ التقاء المادة الواحدة تكون على صورتين : إحداهما على العموم فى المعنى ، والأخرى على الخصوص فيه !

---

(١) من المسائل التى اصطدم العلم فيها بهذه الـكتب مسألة تاريخ ظهور الانسان على الأرض ؛ فقد ورد نص فى الانجيل على أن المسافة الزمنية بين « آدم » و « عيسى » لا تزيد على ٢٠٠٠ سنة ؛ وقد أثبتت الآثار القديمة وجود الانسان قبل هذا التاريخ لمدى بعيد ، وأثبتت الأبحاث الجيولوجية نفس هذه الحقيقة . وهذه المسألة بالذات قامت حولها فى القرن الماضى ضجة كبيرة بين القساوسة والعلماء ، ثم سكت الأولون على مضض ، وإن كانوا لم يستحوا فيسكتوا عن تجريح المعتقدات الصحيحة !

إن آيات القرآن الكريم التى يمكننا أن نفسر بها اليوم نظريات الجيولوجيين فى نشأة الحياة وأطوارها ، وتاريخ الأرض ومصيرها ، ثم ما هو أعمق من ذلك من نظريات علماء الطب والكيميائيين ، وعلماء النفس والأخلاقيين ، إنما تعطى فى صدقها وفى شمولها ، وفى إيجازها الذى هو غاية التبسيط والتبسط ، مظهراً واحداً من مظاهر القوة الواثقة الصادقة التى يفيض بها الإسلام فى كل زمان ومكان

على أن هذا المظهر الواحد نفسه يتجدد فى كل عصر وهو ثابت فى حقيقته ، فتفسير علوم الحياة ومظاهر الكون يظل محتفظاً دائماً فى آيات القرآن الكريم بقوة الارتباط التام بين الذهن العلمى للمفسرين وبين طبيعة العصر الذى يعيشون فيه ، وهذا وحده فى إعجاز القرآن معجزة قائمة بذاتها

تتبين من هذا أن تفسير آية فى هذا العصر على قواعد علم من العلوم بحيث يبدو انطباق مدلول الآية تاماً مع مدلول النظرية العلمية ، ليس معناه أن هذا هو آخر ما فى طوق الآية الكريمة من طاقة المضى مع التدليل العلمى ، بل هى تظل أبداً بعد هذا التفسير — كما ثبت ذلك فى الماضى — محتفظة فى طياتها بمسافة كبيرة للمستقبل ، حتى إذا ما جاء هذا المستقبل بمكتشفاته وآياته ، ظهرت فى هذه الآية لذخائر المستقبل الجديد . مسافة جديدة وآية جديدة

القاهرة فى : أول جمادى الأخرى سنة ١٣٦١
... ... سنة ١٩٤٢

القرآن والعلم

بقلم الدكتور على توفيق شوشة بك
وكيل وزارة الصحة

شرَّف القرآنُ الكريم العلمَ حين أقسم الله بالقلم فى قوله : « الذى علم بالقلم ، عَلَّمَ الإنسانَ ما لم يعلم » . وفى قوله : « والقلم وما يسطرون » . وحضّ الناسَ جميعاً على طلب العلم من مصادره حين قال : « أفلمْ يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين من قبلهم ، كانوا أكثرَ منهم وأشدَّ قوة وآثاراً فى الأرضِ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون » . ففى هذه الآية ندب الله خلقه إلى دراسة ما نسميه اليوم الأركيولوجيا ، والأنثولوجيا والأنثريولوجيا ... وما إلى ذلك من العلوم التى تتصل بحياة الإنسان منذ بداوته حتى استحدث الحضارات وأقامها على ما تهيأ له من علم .

والحض على التماس العلم من مصادره كثير جداً في القرآن الكريم ، وهو إذ يحض الإنسان على الاستزادة من الحقائق يَفسَحُ له فى الأمل ، ويَعِدُه بالفوز كلما اجتهد حيث يقول : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفى أنفسهم » . ونلاحظ هنا أن دائرة البحث التماساً للكشف قد وسعت فى القرآن عالمين : عالم الإنسان ، والعالم اللانهائى الذى يحيط بنا وبالأرض وبالكواكب والنجوم « وزَيَّنا السماء الدنيا بمصابيح » .

ثم نص القرآن على أن العقل البشرى محدود فقال فى معرض العجز عن فهم الأسرار الكبرى : « علم ذلك عند ربى » . ووعد المتقين قبساً من علمه الذى يكشف لهم به المغاليق عن الحق فقال : « الله نور السموات

والأرض ... نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم » .

وحذر من الاكتفاء بما يصل إليه الإنسان من علم قد يزهو به ويعجب ويظن أنه عرف كل شيء فقال : « وفوق كل ذى علم عليم » .

واطراد الكشف العلمى منذ الحضارة العربية حتي اليوم دليل ملموس على أنه حقيقةً « فوق كل ذى علم عليم »

وقبل الإسلام لم يكن هذا رأى العلم المعروف فقد توهم « الأغارقة » أنهم بلغوا من المعرفة مداها وفهموا كل حقيقة ... فلما جاء العرب مسترشدين بتوجيه القرآن جعلوا المشاهدة والتجربة والاختبار أساس المعرفة ، ومحك الحقائق ، وعلى دربهم وبطريقتهم سار رجال النهضة العلمية الحديثة الذين وضعوا أسس العلم الحديث — وإلى هَدْى القرآن يعزى الفضل فى الطريقة العلمية الحديثة بأشمل معانيها .

وما كان القرآن الكريم ليترك تنبيه الناس وإعدادهم لاستقبال كل رائع مدهش من الكشوف والمخترعات فقال : « ويخلق مالا تعلمون » يعنى أن الجديد فى علم الله لا نهاية له ولا حصر ، وأن ما يوفَّق إليه العلم والعلماء قليل نزر بالقياس إلى المجهول ، وأن هذا المجهول قد يفيض به الله على المختارين من خلقه أيا كانت جنسياتهم وعصورهم .

وقد أورد القرآن حقائق جليلة عن الكون والإنسان وعن الحياة وما بعدها ولن يتسع المجال لإيراد كل الحقائق التى تضمنها القرآن فلأجتزئ بما يحضرنى فمن ذلك قوله تعالى : « وأرسلنا الرياح لواقح » وهى حقيقة اهتدى إليها العلماء بعد جهد جهيد . ومثلها قوله : « ومن كل شيء خلقنا

زوجين » . فقد أصبح الرأى أن الأحياء تتميز إلى ذكر وأنثى ، حتى الميكروبات وهى أصغر ذوات الخلية الواحدة يذهب بعض العلماء الحديثين إلى أنه يمكن تمييز ذكر وأنثى فيها .

وحقيقة ثالثة من أمهات الحقائق البيولوجية يتضمنها قوله : « وجعلنا من الماء كل شىء حى » . ولم يكن العلم إلى عهد ليس ببعيد يعرف عن علم الأجنة هاتين الحقيقتين وهما « فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب » و « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج » أى من نطفة خليطة مكونة من بويضة المرأة والحيوان المنوى للذكر

بل لم يعرف علماء الأجنة ما جاء فى القرآن عن حياة الجنين إلا أخيراً وإلا بعد عناء ومشقة حيث قال : « هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلاً لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً » . « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم جعلنا النطفة علقة . فجعلنا العلقة مضغة . فخلقنا المضغة عظاماً . فكسونا العظام لحماً . ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » .

وفى دائرة علم الفلك جاء فى القرآن كثير من الحقائق نسوق منها قوله : « أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما . « وجعلنا من الماء كل شىء حى » وقال فى الحديث عن خلق الأرض : « ثم استوى إلى السماء وهى دخان »

واليوم يقول علماء الفلك : إن الأرض انفصلت عن السماء حين كانت كتلة من بخار ونار فلما بردت انقسمت إلى تربة صلبة هى القارات والجزر ، وإلى ماء هو المحيطات والبحار ، ويُجْمِع علماء التاريخ الطبيعى على أن الحياة خرجت أول ما خرجت من الماء .

وفى القرآن إشارة إلى دورة القمر حول الأرض حين يقول :

« ويسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس » .

أما ما ورد فى القرآن عن صحة الفرد والمجموع فشىء جليل لا حاجة إلى ذكر آياته لشيوعها على كل لسان .

ففى الوضوء والاغتسال نظافة البدن ، وفى الصلاة نظافة القلوب وتطهير الأرواح ، وفى الصوم رياضة شاملة وارتفاع عن الأرضيات .

هذا يسيرٌ من كثير مما ورد فى القرآن الكريم وما يتصل بالمعرفة الإنسانية الصحيحة — ولست بحاجة إلى أن أذكر بأن هذا الذى كشفه العلم الحديث إن هو إلا قطرة من محيط لا نهائى حضَّ الله الناس على ابتغاء الحصول على دررهِ . ومما هو ظاهر أيضاً أن المعرفة فى القرآن شاملة تمتد من الأبد إلي الأزل ، وتستغرق الدنيا والآخرة ، وعلمها عند ربى تبارك الله قد أحاط بكل شىء علماً .

***

وإذا كان الدكتور الهراوى قد شرح المعنى العلمى فى الآيات التى أوردها فى هذه الرسالة التى تصدرها «الأنصار» فهذا العمل المشكور يعد نهجاً علمياً جديداً نرجو أن يعم به روح تفهم القرآن على ضوء العلم الصحيح ، وعلى أحدث مبادئ تلك العلوم .

والواقع أن الروح القرآنية العلمية هى التى أوجدت من العرب شعباً فاتحاً عالماً مثقفاً ، ترك للعالم أعظم تراث علمى بُنيت عليه العلوم الحديثة ، كما بُنى عليه العمران الذى يتمتع به نصف العالم اليوم .

والخير كل الخير أن يعمل المسلمون على نشر ثقافة دينهم ، ليبلغوا ما بلغ آباؤهم من قبل ، وما بلغه منافسوهم اليوم فى المدنية .

وأكرر الشكر للدكتور الهراوى على هذا البحث القيِّم وأرجو له المزيد

النظريات العلمية فى القرآن

من البدهى أن القرآن الكريم لم يرسَلْ للناس ليكون كتاباً علميًّا فى الفنون والمعارف العامة فيتبسط فى شرح الحقائق العلمية تبسُّط كتب الدراسات والتخصص ، أو يتحدث إلى الناس بأسلوب الكتب العلمية أو المحاضرات ، وإلا كان كتاباً ضخماً يقع فى مئات المجلدات ، فضلاً عن خروجه عن مقام الإعجاز .

ومن البدهى أيضاً ، أن العرب لم يكونوا على ثقافة علمية أو فنية منظَّمة تؤهلهم لمجادلة النبى فى الحقائق العلمية العويصة الفهم أو التعليل . ومن آيات ذلك أنهم كانوا يظنون مثلاً أن الهلال إذا بدأ صغيراً ثم استدار بدراً مسألة علمية غامضة ومحيرة ، بل هى اللغز الذى يتوجهون به إلى النبى لحله تعجيزاً له !

ونحن بعد تقدم العلوم والمعارف العامة ، ننظر اليوم إلى هذا السؤال نظرة الاستخفاف ونبتسم له . والحق أن القرآن لو أجاب على هذا السؤال جواباً علميًّا على ما يفهمه الآن طلبة المدارس الابتدائية وصغار الأطفال ، لاضطرب العرب لذلك اضطراباً لا يسكنون بعده ، ولظلوا على غير هدى ؛ ثم ينتهى الأمر بعد هذه السنين الطوال بأن يسقط فى عهدنا الحالى إعجاز القرآن العلمى فى هذه النقطة ، لأنها أصبحت من المعارف الابتدائية الدارجة ، ولذلك كان الجواب « يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت » جواباً محكماً فيما أُنزل القرآن لأجله ، وهو حقيقة علمية ثابتة ، تدل على أن السنين الإسلامية هى قمرية وليست شمسية ، ومن المدهش حقًّا

أن تكون سنوات الإسلام قمرية ، فما هو السبب ؟

يقول « مارجوريث » فى طعنه بالإسلام : إن السنين الهجرية لا تصلح لشىء فى الحياة ، أى لا تصلح للزراعة ولا لتقسيم فصول السنة ولا لتقسيم الوقت . ولكن الباحث فى علوم الحياة وارتباطها يكشف عن حقيقة باهرة فى الشهور القمرية والسنين القمرية . هذه الحقيقة ترتبط بخلْق الإنسان وتكوينه . فالحيض فى النساء دورته فى الشهور القمرية ، وشهور الحمل تحسب فى كتب الولادة بالشهور القمرية وعدتها عشرة . ومن الملاحظ أن أكثر النساء يحضن فى الوقت الذى يكون فيه القمر بدراً .

هذه — أى مدة الحمل — حقيقة ثابتة معترف بها فى كتب الطب ؛ والظاهر أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين دورة القمر وتكوين الأفراد ، لم يبحث عنه فنياً إلى الآن ، وهذه نقطة تحتاج للبحث والاستقصاء ، لأنها مما يتضاءل دون الإحاطة بها جهد فئة من العلماء .

إذن ، لم يكن من الإعجاز فى شىء أن يجيب القرآن عن سبب صغر القمر فى أول الشهر وكبره عند منتصفه ، ولكن الإعجاز الحقيقى أن لا يذكر شيئاً من ذلك .

لمثل ذلك السبب نرى أن الجانب العلمى من القرآن لا يجب تطبيقه على العلم الحديث تطبيقاً تاماً ، فالعلم يتغير ويتجدد ، والقرآن ثابت . فإذا أمكننا أن نتفهم الآية فى ضوء العلم الحديث ، فقد يكون من الممكن أن تتغير وجهة النظر العلمية ، وأن تحل نظريات أخرى محلها ، فيكون تفسيرنا خطأ ، ونقع بذلك فيما وقع فيه من سبق من المفسرين .

هذه وجهة نظر لها قيمتها ، ولها وجاهتها ، ولكن من العلوم الآن

مسائل أصبحت تعد من بدهيات العلم التى لا يمكن ، بل من المستحيل أن تتغير . فكروية الأرض مثلاً حقيقة علمية لا يمكن أن تتغير أو يُشك فيها بعد أن جاب الناس حولها وفى جوفها بالبواخر والطائرات . والقرآن نفسه يُحيل كثيراً من المسائل العلمية إلى عقل الإنسان وفكره فى طريقة حلها ، بل يهيب بالناس أن ينظروا ويتدبروا ويتفكروا ويتعلموا ، ليعرفوا آيات الله ويدركوا سرها ، بل يتحدى الجهل ، ويعيِّر الناس بعدم التعلم وضيق معلوماتهم ، ويقول فى صريح العبارة : « وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم » ؛ ويقول : « وما أُوتيتم من العلم إلا قليلاً » ؛ ويقول : « إن فى ذلك لآيات للعالمين » .

هذه الآيات وأمثالها مما ورد فيه الأمر بالتفكير : « أنظروا ... تفكروا » كلها دليل على وجوب النظر في فهم الآيات وتأويلها فى ضوء العلم كما يشير بذلك القرآن نفسه .

وأحب أن أنبه إلى أن الأخذ بأقوال المفسرين القدماء فى كل شىء ، يجب أن يكون موضع نظر . فالقرآن تناول كل العلوم تقريباً وأشار إليها . فقد تناول : الفلك والطب والتربية والصحة العامة ، إلى غير ذلك . وقد أصبح لكل هذه العلوم إخصائيون يمكنهم تفهم معنى الآيات ومراميها على ضوء علمهم وتجاربهم .

على أن نظريتنا فى علوم القرآن أن هذا الكتاب الكريم تكلم بصفة حاسمة فى نتيجة العلوم لا فى مقدماتها ، بل طبَّق هذه العلوم تطبيقاً ولم يشرحها ، تاركاً التعليل والتأويل والبحث للعقل الإنسانى ؛ فقد قال مثلاً : « سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ، ومن

أنفسهم ، ومما لا يعلمون » ؛ فهذه الآية التى سيأتى تفسيرها فيما بعد ، حكمت حكماً قاطعاً بأن الله تعالى خلق الذكر والأنثى فى النبات والحيوان ، فيما يعلم العرب وما يجهلون ؛ وعلينا أن نبحث إذا كان كل شىء خُلق من ذكر وأنثى يستمر تناسله أو لا يستمر ، لأنه تعالى يقول فى آية أخرى : « ومن كل شىء خلقنا زوجين » .

فهذه آيات قاطعة بأن لكل شىء حى ذكراً وأنثى ، وعلى العلم أن يتحقق من ذلك ، وقد تحقق فعلاً .

لذلك كنا فى مطالعاتنا للقرآن الكريم ، نقف موقف الدهشة للحقائق العلمية التى أشار إليها وأصبحت ثابتة الآن ؛ ولم يكن من الممكن للعرب ولا لأى شخص عاش فى ذلك الجيل أن يتفهمها ، أو يدرك أسرارها على النحو الذى نفهمه الآن ؛ وفى كل آية من هذه الآيات كنّا نتذكر الآية الكريمة التى أشارت إلى ما سيحدث فى العلوم الإنسانية من التقدم ، وهى قوله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » ؛ وفى هذا إشارة صريحة لا تقبل الشك إلى أن التطور والتقدم والاختراع والاستكشاف فى العالم ، وخصوصاً فى الإنسان نفسه (أنفسهم) — تزيد الإنسان تفهماً لإعجاز القرآن من الوجهة العلمية ، وبالتالى فى جميع أركان الحياة .

صور من التفسير العلمى

الناحية النفسية — الآيات ومعانيها — تحقيق الشخصية — أسرار السحر

قلنا : إن القرآن فى أحكامه قد طبق العلوم ولم يعن بشرحها ، ولعل أظهر علم فى التطبيق هو علم النفس ، فقد أظهر علم النفس حكمة كل شىء فى أحكام القرآن فى المعاملات الإنسانية ، وفى فرض العقوبات ، وفى التربية النفسية ؛ وذلك لأنه تشريع ، والشرائع هي معالجة الأمراض الاجتماعية .

على أن الإسلام فى معالجته للنفسيات ـ سواء للمجتمع أو للشخص ـ عامل النفس معاملة الحكمة والمنطق ، وحدد لها المباح والمحرم ، وجعل القصاص فى حدود العدل الذى ينطبق تمام الانطباق مع الغرائز وإباحتها ووسائل كبحها ، تلك هي التى سماها القرآن : « حدود الله » ؛ وهى فى الحق حدود النفس التى فى طاقتها احتمالها ، وهى اللازمة لصيانة المجتمع من الفوضى والدمار .

ومسألة النفس والنفسيات تجرنا إلى البحث فى تفسير بعض الألفاظ القرآنية ؛ فقد يقال مثلاً : إن تحميل الآية القرآنية من المعانى المدنية ما لم يكن العرب يفكرون فيه ، فيه شىء كثير من الإسراف فى التأويل وتحميل الآيات معانى لم تقصدها ، ومثل هذا القول مردود ، لأن من يقوله لا يجهد نفسه فى تفهم معنى الألفاظ كما يجب أن تفهم ، لأن اللفظ الواحد فى اللغة قد يحتمل أكثر من معنى ، وفى اللغة نفسها ألفاظ

تؤدى معنيين متضادين ككلمة : « أبلّ » فهى مثلاً لانتهاء المرض سواء بالشفاء أو الموت . وفى القرآن ألفاظ لها معانٍ كثيرة سبق للعرب استعمالها فعلاً . فلفظة « قلب » مثلاً فى القرآن وردت بعدة معانى لا يمكن أن يكون العضو المعروف بالقلب أحدها ؛ والمفسرون يقولون فى تفسير هذه اللفظة وحدها عشرات الصفحات ، وكأنهم يتكلمون بلسان الإلهام ، أو يقرأون ما تمخضت عنه الأيام من علم النفس ، وما لا كته الألسنة من آراء « فرويد » ؛ ولننقل لك بعض معاني « القرطبي » : (صحيفة ١٦٢ من الجزء الأول عن معانى القلب) : « ختم على قلوبهم » — عدم الوعى . الطبع . الضيق . المرض . القسوة . الرين . الانصراف . الحمية . الإنكار . الفهم . وموضع الفكر والنفس .

وانظر إلى الآية « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » ، فمعنى كلمة « القلب » هنا حديثة جداً لو طبقناها على علم النفس والتحليل النفسى . فالإيمان وتقوية النفوس بالإيحاء يرد نزعات القلب ويشفى الأمراض النفسية .

إذن — وهو ما نعتقده — لو فهمنا الآية القرآنية على معنى علمى لم يكن مفهوماً حال نزولها ، فذلك إعجاز يدل على أنه من المستحيل على إنسان مهما أوتى من العلم أن يفهم هذه الآية على هذا النحو ، لأن الآية القرآنية — كما قدمنا — تتحدث الحديث العلمى كنتيجة مقررة ، وعلى العلم أن يتعرف مقدمات العلوم التى تتحدث عنها الآية ، وأن يستكشف ويتقدم ، وسنرى أن القرآن ثابت المعنى ، إذ أن إعجاز الآية أن يتفهمها الناس كلهم ، ولكل منهم تأويله الصحيح .

فانظر لكلمة « شيطان » ، فإن تأويلها لغةً يصح ، وتأويلها على أنها

نزعات النفس الإنسانية يصح ، وتأويلها على أنها الرغبات المكبوتة جائز ، ومهما اختلفت التعبيرات والتأويلات فالمعنى صحيح وسليم ، ولكن المهم أن المعنى العلمى العميق يزيد المعنى قوة وجلاء ، فيفهمها كل إنسان حسب درجته من الثقافة والتعليم .

لهذا ترى أن الآيات التى وردت فى القرآن عن علوم الكون والصحة العامة ، أو الطب أو الفلك من هذه الآيات ، نزلت على أنها نتيجة نهائية ، وعلى العلم أن يتحرى مقدماتها وأسبابها .

ومهما يكن من الأمر ، ففي القرآن آيات علمية غاية فى الإعجاز والأحكام ، لا يمكنك أن تمر بها من غير أن تسترعى نظرك وانتباهك من وجهة أنها أشارت إشارة صريحة لإعجاز علمى حققته الأيام وإليك أمثلة من ذلك :

تحقيق الشخصية

فى سورة القيامة : « أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه . . . بلى قادرين على أن نسوى بنانه » . هذه الآية على قصرها ، قد لا يرى الشخص العادى فيها شيئاً من الإعجاز العلمى ، وكان المفسرون يقولون إنها تشير إلى أن الله تعالى يمكنه أن يعيد خلق الأصابع بعد أن تفنى . ولكن ليس بنان الإنسان بأرق من عينيه فى الخلق ، أو من الوجه ، حتى يجعل القرآن إعادتها أبلغ من إعادة بقية الأعضاء فى جميع الجسم .

يقول الواحدى فى أسباب النزول عن هذه الآية : إن عمر بن ربيعه طلب من النبى أن يحدثه عن يوم القيامة . فلما حدثه قال عمر : لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك يا محمد ولم أومن بك ، أوَ يجمع الله هذه العظام ؟ فنزلت هذه الآية ؟ !

إذن ، فقد تحدى عمر عودة بناء الانسان ، وكان الجواب تحدياً ظاهراً لعودة الانسان بتأكيد لا يقبل الشك ، أشير إليه بإعادة البنان . فلا بد لهذا أن يكون البنان شيئاً خارقاً للعادة وليس كباقى أعضاء الجسم ، وقد كشف العلم عن ذلك فيما بعد . فبالرغم من أن الأصابع هى أشد أعضاء الجسم رقة فى الاحساس ومعاونة فى الحياة ، فإن « بصمات الأصابع » خاصة بالشخص نفسه ، وخطوطها تحدد شخصيته ، ولا يوجد شخصان لهما بصمة أصابع متشابهة ، وقد أنشئت مكاتب تحقيق الشخصية على دراسة خطوط البصمات . فالمعنى المفهوم من هذه الآية أن الانسان سيعود بنفسه كما تأتى به أقلام تحقيق الشخصية ، ولا يمكن أن يؤخذ هذا التفسير بطعن لأن ملايين البصمات دلت على صحته واعتمدته الحكومات والهيئات العلمية

أليس فى ذلك إعجاز علمى ؟ إن القرآن سبق العلم إلى هذه الحقيقة فعلينا أن نتفهم مرامى الآيات قبل أن نأخذها بألفاظها ؟ أو ليس هذا من معانى آية « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » ؟

على أن المهم هو أننا فهمنا هذه الآية بعد أن كشف عنها العلم ولم يبين لنا القرآن طريقة هذا الاهتداء ، وهذا يفسر ما شرحناه آنفاً من أن القرآن يذكر الحقائق مجردة ويترك للعقل وللعلم البحث عن سر هذا الإعجاز . فإذا لم يمكنا أن نفهم حكمة شىء ، فعلى العلم أن يكشفه لنا ، لا أن نرمي القرآن بالغموض ، بل نرمى أنفسنا بالقصور لأننا لم نفهم ظاهره ، فكيف يمكن أن نفهم بواطنه ؟

أسرار السحر

« وقالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين . قال : ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم . وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون » .

فى هذه الآية كل قصة السحر والسحرة ، وفيها معنى السحر وتعليله ونوعه وشرحه وتفسيره .

« سحروا أعين الناس » هذا هو بيت القصيد ، وهـذا هو معنى السحر . فالسحر نوع من التنويم المغناطيسى والساحر هو المنوم والمسحور هو الوسيط : « واسترهبوهم » أى شلوا إرادتهم وأوقعوهم تحت تأثيرهم بالخوف والوجل .

والتأثير المغناطيسى مسألة علمية تنحصر فى أن المنوِّم يُخضع الوسيط لإرادته فإذا أعطاه ماء وقال له هذا خمرٌ وشربه الوسيط يسكر ويترنح ، وإذا أمره بأى أمر خضع له ، وإذا قال له عن المائدة إنها بقرة تَقدَّم وحلبها وقدم لها غذاءها من البرسيم وأخذ يمسح بعنقها . كما أن هنالك درجات بسيطة منه ، فإذا دخل شخص مثلاً أمام جماعة وأوهمهم بصفة التأكيد أن الساعة هى الحادية عشرة وهى فى الواقع العاشرة فقط فأغلبهم إن لم يكن كلهم يعتقدون أن الساعة هي الحادية عشرة وهم ينظرون فى ساعاتهم . وكثيراً ما يحدث هذا بين صديقين فى أمور تافهة ، كأن يقول لك عن منظر أمامك فتتوهمه صحيحاً فإذا خلوت بنفسك اكتشفت الخطأ ، وكقراءتك فى الصحف فقد تكون أمامك لفظة خطأ فتقرأها صحيحة بسليقتك دون أن تلاحظ خطأها .

فالسحر هو إخضاع الشخص لسلطة المنوم يأمره فيطيعه ، ويشير إليه فينفذ الإشارة . وكل قوة السحرة فى أعينهم وحدَّة نظراتهم وتأثيرهم المغناطيسى على الناس .

كان بعض الصحافيين فى رحلة إلى بلاد الهند المشهورة بكثرة فقرائها الذين يحترفون مهنة السحر ، ورأى الصحفى ساحراً يعرض بضاعته فهاله الأمر . رأى الساحر يقذف بحبل رفيع فى الهواء فانتصب الحبل كأنه معلق فى الفضاء وأخذ الساحر يصعد حتى بلغ القمة . فوجد الصحفى فى هذا المنظر موضوع مقالة يكتبها فالتقطه بالفتوغرافيا ، ولما أظهر الصورة وجد أن الحبل ممتد على الأرض والساحر يقفز فوقه على الأرض أيضاً .

لقد نوَّمَ الساحر جمهرة المتفرجين ، ولكنه لم يسحر عين الآلة لأنها لا تخضع لإرادته إذ ليس لها إرادة تسلب . هـذا هو تعليل السحر وإعجاز الآية .

وكما أن المنوم يؤثر على الشخص الحاضر أمامه فإنه يمكنه أن يؤثر عليه وينومه عن بُعد كما فى التنويم المغناطيسى . والعزيمة والتمتمة ماهما إلا تنويع للايحاء المغناطيسى الذى يقول فيه المنوم للوسيط : أنت نائم ، أنت مفقود الإرادة ، أنت تحت سلطتى . وهذا هو الاسترهاب !

واختلاف قوة السحرة هى فى قوة تأثيرهم على الأشخاص كما أن فى اختلاف قوة إرادة الأشخاص أنفسهم أثراً فى نجاح عملية السحر ، فأقوياء الارادة لا يخضعون إلا لمن هو أشد منهم ، ولذلك كان العاكفون على السحرة هم من ضعاف العقول المسترهَبين .

على أن هناك ظروفاً فى الحياة تشل إرادة الشخص وتضعف عزيمته

كالمرض أو الحاجة ، كما أن من الناس أقوياء الارادة من يشل إرادتهم الارهاب والخوف والمفاجأة فأنت ترى فريقاً من العقلاء يخضعون لمثل هذه المؤثرات فى أمثال هذه الظروف .

هذا هو الاعجاز الثانى للآية فى قوله تعالى « واسترهبوهم » . والرهبة والتخويف من وسائل إضعاف الارادة ، والاستسلام للتأثير الايحائى أو التنويم المغناطيسى .

ولذلك نرى ونسمع دائماً أن المشعوذين الذين يتخذون السحر صناعة لا همَّ لهم إلا إدخال الرعب فى نفوس صرعاهم ، ويقومون بأعمالهم فى الظلام ويستعينون بأصوات غريبة فى التأثير . . . نقول هذا نتيجة تجارب ومشاهدات ، ولذلك إذا أردت أن تكشف سر هؤلاء فعليك أن تعمد إلى طريقةٍ ترهبهم بها ، وأن تعمد إلى تخويفهم هم أنفسهم ، وبذلك ينصرف ذهنهم عن التأثير عليك وتظهر حيلتهم . وهذا ما فعله موسى بوحى من الله فلما ألقى عصاه واسترهب سحرة «فرعون» «ابتلعت» سِحْرَهم ، أى غاب عن النظر ما كانوا يدعونه ، ولقفت إفكهم وألاعيبهم فأظهرت الحقيقة من أنه لم يكن هنالك أى شىء غير عادى .

هذه هى كل حكاية السحر وسر السحرة سردها الله فى كلمات : « سحروا أعين الناس واسترهبوهم » . « فإذا هى تلقف ما يأفكون » .

ويغلب على الظن أن العصا لم تبتلع شيئاً ، بل ابتلعت الوهم الذى كان مستولياً على الناس وابتلعت التأثير المغناطيسى فرجعوا إلى عقولهم وشاهدوا الحقيقة ، فذهل السحرة لتلك القوة العليا التى سحرتهم هم أنفسهم فخروا ساجدين !

اعتزال النساء وأدب العلاقة الجنسية

سورة البقرة الآية ٢٢٢ و ٢٢٣ : « ويسألونك عن المحيض ، قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ، ولا تقربوهن حتى يطهرن . فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين . نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم ... »

قبل أن نشرح الآية الكريمة يجب أن نلم بأسباب نزولها . قال الواحدى : إن العرب كانت تعامل المرأة الحائض معاملة المجوس و(المنبوذين) وذلك أن الدم يعتبر عندهم نجاسة وقذارة

وكانت المرأة نفسها تنتبذ عند الحيض مكاناً قصياً لا يكلمها أو يؤاكلها أو يشاربها إنسان . وأضاف الواحدى إلى ذلك قوله : « سأل أبو الدحداح رسول الله عن ذلك فنزلت هذه الآية — وكانت هناك عقيدة ثابتة فى نفوس العرب كان اليهود قد بثوها فاعتقدوها ، وهي أن غشيان المرأة من مكانها الطبيعى وهى مدبرة أو مستلقية على وجهها يكون سبباً فى أن نسلها يأتى أحول أو مخبولاً »

يتجلى فى هاتين الآيتين الكريمتين أدب العلاقة الجنسية بين الزوجين ، وفيهما ثقافة صحية لم يسبق للناس بها علم ، وفيهما تصحيح لموقف المرأة الحائض . فهما من هذه الوجهة نتيجة صحيحة لبحوث طبية مستفيضة لم يشر القرآن إليها ، وعلينا بما لدينا من وسائل الطب الحديث أن نعلم إذا كان هذا منطبقاً على أحدث العلوم أم لا .

وقد اتخذ جماعة المبشرين من الآية الأولى ، من غير أن يعرفوا

أسباب نزولها ، ذريعة للطعن بالقرآن فقالوا إنه لا يحصل أى أذى من الحائض طبياً، والواقع أن الأذى يحدث غالباً من هذه الوجهة كما أثبت الطب الحديث ذلك، ولكنا نكشف هنا عن حكمة جليلة فى تفسير الآية فى ضوء علم النفس

نعلم أن الغريزة التناسلية كافية وحدها فى الحيوانات الدنيئة لإتمام الصلة التناسلية على حالة الفطرة الأولى ، وبعد الانتهاء منها يفترق الذكر والأنثى إلى حيث لا عودة . أما فى الحيوانات الراقية فقد علمتنا المشاهدات وعِلم الحياة أن الإغراء عامل كبير فى اجتذاب الجنسين . ومن وسائل الإغراء فى الحيوان نفسه ما كان بتجميل الذكر بالريش الملون الزاهى كالطاووس ، أو بتغريدٍ مشجٍ كالبلبل والهديل ، أو بلَبَدٍ كالأسد

أى أن الإغراء الطبيعى يتنوع فى الملبس واللون والمنظر والموسيقى ومثل هذه الفنون التى يظنها الإنسان من مبتدعاته وسيلة للاغراء

وقد أدركت المرأة بفطرتها وسائل الإغراء فعنيت بمواضع جسدها وخاصة ما ينبت فيه الشعر فيكون فيه لحاسة الشم أثر فى تشجيع الرجل وتلافى نفوره فلهذه الحاسة أهمية كبرى لا يخطئها الاستنتاج حتى فى الحيوان كالقط الزبدى أو غزال المسك ، فهذه العطور الطبيعية وسيلة قوية للاغراء

ويروى لنا التاريخ أن ريشيليو كان لا يهتاج إلا على سرير مثقل بالورود والرياحين .

ولقد غيرت موهبة الكلام ورقي الإنسان طرق الإغراء فصار الإغراء الآن نفسياً أيضاً بوسائل منها عذوبة الحديث ، والطلاء والعطور والنظافة والزينة وابتكار الأزياء ، كل هذا يؤثر فى نفس الرجل فتجتذبه المرأة

ونفسية الرجل شديدة التأثر بأنواع الإغراء حسب مزاجه وثقافته

أما فى المرأة فهى مشتركة مع الرجل فى قابليتها للاغراء ، إلا أن هناك حالات أخرى تهيئهما معاً للعلاقة الجنسية أهمها الدور الطبيعى للميل الجنسى عندهما

أما فى الرجل فدورته حسب مزاجه قد تكون يومية ، وقد تكون على فترات بين الأيام .

أما فى المرأة فوظيفتها الطبيعية مختلفة عن وظيفة الرجل ، ودور ميلها الجنسي هو نداء الطبيعة للحمل ، وهى لا تكون متهيئةً للحمل إلا مرة واحدة فى الشهر تكون فترتها قبل الحيض أو بعده بنحو أسبوع .

أما فى وقت الحيض فينعدم ميل المرأة تماماً وتكون كارهةً هذا العمل ، وتتأذى منه تأذياً شديداً . أما بعد الحيض فذلك هو الدور الطبيعى الذى تتيقظ فيه رغبتها الجنسية وتشتد .

هذا طب حديث لا شك فيه ، ومنه يتضح ما فى الآيتين السابقتين من الإعجاز العلمى . فالمحيض فيه أذى لأن المرأة تتأذى منه ، وفيه إيذاء لشعور الرجل الذى عرفنا من دراسة نفسيته أنه يتأثر بالمغريات من الطيب والعطور والنظافة لا بالقذارة والدم وما ينتج عنهما من روائح ، فضلاً عن أن المرأة فى هذه الحالة ليست من مغريات الرجل لأنها أشبه بالمريضة .

هذا معنى قوله تعالى : « قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض » وبقية الآية تتمشى مع الشرح السابق ، وهو أن الفترة التى بعد الحيض ، أو قبله ، هى فترة استعداد المرأة للحمل ، وميلها الطبيعى للاختلاط الجنسى . وهنا يظهر إعجاز الفقرة التالية من صيغة الأمر فى قوله تعالى : « فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله » إشارة إلى أهمية هذا الدور .

أما قوله تعالى : « فأتوا حرثكم أنى شئتم » فقد عرفنا من أسباب

نزولها حكمتها وهى هدم الخرافة القائلة بأن الطفل يكون إما أحول أو مخبولاً . ولكن فى إباحتها أيضاً سراً آخر هو تغيير الوضع فى أحوال الوقاع ، إذ أن له أهمية خاصة فى تجديد التعارف الجنسى . ذلك لأن استمرار الزمن بين الزوجين عدة سنين يؤثر تأثيراً نفسياً فى كليهما فيقابل كل منهما هذه المسألة بفتور . وسبب ذلك تأثر المراكز النفسية بالتعود فلا تتنبه بالنظر أو اللمس ، خصوصاً إذا اندفع الزوجان فى أول الحياة الزوجية واستمتعا استمتاعاً متطرفاً . فالمرأة التى تتبذل فى العُرْى أمام زوجها تفسد عنده الفكرة الخيالية التى يراها فى جمالها ، ودوام التبرج يفسد عنده الفكرة الخيالية التى يراها فى تنسيقها وزينتها . ومن هذا يتبين لك ضرورة المحافظة على فكرة خيالية في نفس الزوج لجمال الزوجة ، ولذلك ينصح علماء التناسليات أن ينام كل منهما على انفراد حتى لا يطلع أحدهما على مواضع الضعف عند الآخر ، كما أن من الواجب أن يجددوا ما بينهما وينبهوا حواسهما بأنواع متعددة من الوقاع فذلك أحفظ لروابطهما ، وأبقى على مسرات حياتهما ؛ فالشعوب الهمجية تعرف نوعاً واحداً من أنواع اللقاء الجنسى ، والشعوب الراقية تعرف أنواعاً متعددة .

ولعلك بعد هذه الفقرة عرفت إعجاز آية أذى المحيض ، فرؤية الحيض تؤثر تأثيراً سلبياً فى نفس الرجل ، كما أنها تعرض المرأة عليه فى أقذر حالاتها ، وأضعف صورها . وإباحة كثرة أوضاع المواقعة من المكان الطبيعي « من حيث أمركم الله » فيها سر من أسرار التقدم والمدنية بتجديد النفس

أرأيت أن القرآن الكريم يقرر النتيجة ويترك للناس وعلمهم الأرضى معرفة المقدمات ؟ !

تهذيب الغرائز الهدامة والايحاء بالخير

« الصلوة »

[سورة النساء ١٠٣ : « فاذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة
إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً » ...]

فرضت الصلاة فى الإسلام بشكل خاص مع تكرارها خمس مرات فى اليوم ، ويسبقها الوضوء . فهى فى الواقع إيحاء ذاتى لتهذيب الغرائز الهدامة فى الإنسان . وهذه الغرائز الفطرية يمكن توجيهها إلى الخير وتحويل مجراها لما يُصلح المجتمع .

والإيحاء الذاتى هو طريقة نفسية لتقوية الإرادة والتغلب على المصاعب النفسية فى الشخص . وقد أصبحت هذه الطريقة شائعة فى علاج الأمراض النفسية البسيطة وتهذيب النزعات الشديدة .

ومن المعروف أن النزعات الإجرامية وراثية ، وهناك إحصائية ترد دائماً فى كتب علم النفس ، وهى أن رجلاً من عنصر شريف تزوج امرأة تنحدر من عائلة ملوثة بالعته والإجرام ، ثم بأخرى من عائلة من طبقته ، وبعد قرون أحصيت ذريته من كلتا السيدتين فكانت ذرية الأولى ملوثة بالجنون والإجرام ، وكانت ذرية الأخرى ناجحة مستقيمة فى الحياة .

أما كون المجرم يمكن ترقية نزعاته وتهذيبها فقد صار ذلك مسألة علمية تتلخص فى تحويل الجهد النفسى من اتجاه إلى اتجاه ، أى من ضرر إلى منفعة على شرط ألا تكون الأمراض الطفيفة قد تحولت إلى مزمنة .

مثال ذلك أن من الناس من يفكرون فى أمر سيئ فيريدون أن يبعدوا عنهم هذا التفكير بتفكير آخر ، ثم لا يستمروا فى هذا التفكير الجديد إلا وقتاً قصيراً ينتقلوا إلى التفكير الأول ، ثم يترددوا فى التفكير بين الناحيتين حتى تختل قوة تفكيرهم وتتمزق شخصيتهم .

ولنضرب لذلك مثلاً :

رجل فقير رأى أن لجاره ابنة جميلة كما أن له ثروة طائلة ، فاشتهى أن يستولى على الإثنين ؛ ولما فكر فى ذلك وجد العقبات كثيرة ، فأراد أن يطارد هذه الفكرة فحصر تفكيره في فقره وفى حظه العاثر وفى كونه لم ينجح فى أن يكون غنياً مهاباً ، فاغتم لهذه الفكرة أيضاً ، فرجع إلى الفكرة الأولى من الاعتداء على جاره ، ولم يلبث أن قرر ألم والصعوبة التى تعترضه ، فأخذ يفكر فى مطاردة هذه الفكرة بضرورة ترك البلد ، والسعى وراء الرزق فى جهة أخرى ، ويستمر على ذلك . . . الخ

فى مثل هذه الحالة تنزعزع النفس الإنسانية ويقلق الضمير .

ولقد قسم علماء النفس أنواع العقول والأمزجة إلى فئات متعددة يمكن حصرها فى ثلاث فئات : (١) العقل النظرى (٢) الوجدان السريع (٣) الارادة المندفعة أو المترددة .

ويهمنا فى هذا البحث أن نتفهم حالة أصحاب الإرادة المندفعة ، وأصحاب الإرادة المترددة . وقد علم أن الإنسان مسير بثلاثة قوى : الدافع ، والعاطفة ، والعقل أو التفكير ، وقلّ من يجمع بين الثلاث ويوازن بينها ؛ والناس ينقسمون إلى ثلاث طوائف بحسب ما يتغلب فى كل طائفة من العمل تحت تأثير الدافع أو العاطفة أو العقل .

فالإرادة القوية المعتدلة تنتج تفكيراً منتجاً مستقيماً سواء كان عملياً أو نظرياً ، أما أصحاب الإرادة المترددة فإنهم يتبصرون ويفكرون ولكنهم لا ينفذون ، والسبب فى ذلك أنهم يركزون تفكيرهم فى مسألة ، وتكون عندهم الدوافع للتنفيذ ، ثم تطرأ عليهم فكرة أخرى فيتحولون معها كلية عن التفكير الأول ، ثم يترددون بين الأفكار ويتذبذبون بين الآراء .

وإذا كان سبب هذا الضعف فى معظم الأحوال « مسألة جنسية » وما يحوطها من مصاعب ومتاعب ، فإن معظم التردد فى العزيمة منشأه عدم الاستقرار الفكرى من هذه الوجهة لما يحوطها من الآداب الاجتماعية .

لذلك كانت الصلاة نوعاً خاصاً من الإيحاء الذاتى النقي . وإذا كانت الصلاة فريضة فإن الإيحاء بالإيمان والاستقامة مفروض فى كل وقت فقد قال تعالى : (فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم . فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً)

فهذا الإيحاء فى الواقع توجيه للضمير الإنسانى للخير ، بتكرار التذكير بما يهذب الغرائز النفسية ويوجهها فى طريق الفضيلة .

وقد أصبحت هذه الطريقة شائعة فى العلاج النفسى الحديث مع أن الإسلام سبقها بنحو أربعة عشر قرناً ، والواقع أن الإيمان والاعتقاد فى الله أقوى أثراً من أى إيحاء ذاتى مبنى على الرغبة المجردة .

وقد يطول الشرح إذا نحن قارنا بين نظريات الفلسفة القديمة والحديثة فى مسألة تعريف الروح والنفس . فإذا كان القرآن قد جعلها من (أمر الله) فى كنهها فإن آثارها وتوجيهاتها أصبحت الآن معروفة بما لا يخرج عن تعاليم القرآن .

والخلاصة أن الصلاة هى إيحاء ذاتى مشبع بروح الثقة بالله ، مع الإقرار بضعف النفس من جهة واحدة ، وهى السطوة والبطش ، وإقرارها بحاجتها إلي ما يكبح غرائزها الهدامة التى لا تتلاءم مع المجتمع الصالح . وتكرار الصلاة فى اليوم الواحد عدة مرات هو تثبيت لهذا الإيحاء فيصير يقيناً ومبدأ . فإذا ما حرم العالم منه انقلبت علاقاته المنظمة إلى فوضى أخلاقية كما هو الحاصل اليوم ، وتسلطت الغرائز على الناس فدفعتهم إلي العدوان على النفس والمال والعرض ، سواء كان هذا العدوان فوق سلطان القانون أو فى خفية منه واحتيال عليه !

التحكم فى الارادة وترويض النفس

نظرة الصوم من الوجهتين النفسية والطبية

[يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون]

الصوم ركن من أركان الإسلام . وللناس طرق كثيرة فى التهرب من التكاليف الشرعية والدينية وليس أمامهم فى تبرير إفطارهم إلا الاعتذار بالطب عن القيام بواجبهم نحو الله ولذلك نتكلم عن حكمة الصوم من الوجهة الطبية وعن منافعه .

والكلام عن الصيام من الوجهة الطبية ينقسم إلى قسمين قسم نفسى (سيكولوجى) وقسم طبى باطنى :

الوجهة النفسية

لا حاجة بنا إلى شرح أثر الجوع فى إذلال النفس . والجوع يدفع بالناس أيضاً إلى مواجهة الأخطار . فالذى يروض نفسه على الجوع إنما يقوم بتجربة تمكّنه من التحكم فى إرادة نفسه وترويضها على المشاق

وفى الهند كثير من هذا النوع من الرياضة التى أدخلها « غاندى » فى السياسة فصار إخضاعه نفسه بالجوع تحكماً فى نفس الوقت فى إرادة الهنود . فإذا كان الإنسان أسير رغباته ولا يمكنه أن يتمكن من إرادته كان ضعيف العزم سهل الانقياد . أما الشخص الذى يمكنه التحكم فى إرادة نفسه فهو الشخص القوى العزيمة الذى يمكنه أن يتغلب على المصاعب .

والفقراء الهنود يفعلون كثيراً من هذا فى سبيل إيمانهم الدينى . فمنهم من يرفع ذراعه شهوراً حتى يتقدد ويبيس ، ومنهم من يجلس على المسامير أياماً أو شهوراً .

ومما يدلك على أن الصيام تقوية للعزيمة ورياضة نفسية أن كثيراً من الناس لم يكتفوا بالصيام فقط شهراً فى العام بل أطالوا المدة إلى مدى ثلاثة شهور ، كما أن غاندى يقوّى من إرادته ويروض نفسه على الكاره لا بالصيام على الطعام فقط بل بالصيام عن الكلام يوماً فى كل أسبوع . وهو يعترف أن هذا النوع من الرياضة تقوية للارادة ، ويقول إن أكثر الكلام الذى يتكلمه الإنسان لا لزوم له

والأطباء كثيراً ما يعجزون عن إقناع مرضاهم بالتزام نظام غذائى خاص ، فمرضى البول السكرى مثلاً قليلاً ما يخضعون للنظام الغذائى الذى يتناسب مع مرضهم . وكذلك مرضى النقرس لا يطيقون أن يمتنعوا

عن المأكولات التى تضرهم ، فلو أن الناس التفتوا إلى أن الصيام نوع من التربية للارادة ، وأنه يقوّى العزيمة وطبقوا ذلك عند ما تصيبهم أزمة من أزمات الحياة كان لهم فى رياضة الجوع وسيلة لتقوية إرادتهم . وكذلك العاكفون على التدخين أو الخمر أو المكيفات الأخرى فإن هذه العادات مهما كان من أمرها مباحةً أو مكروهةً أو محرمةً لا لزوم لها فى الحياة ، فمنها ما يضر ومنها ما يجر الناس إلى مهاوى الشقاء . فإذا تربّت للعزيمة على الامتناع عن الطعام وهو أسٌّ من أسس الحياة كان من السهل على الناس أن يقلعوا عن عادات ضررها مؤكد ، وهى تسوقهم إلى المرض والفقر والشقاء

وكذلك العادات الضارة ـ فالقامرة عادة ، والسرقة قد تكون عادة وهلم جرا من قبيح العادات ـ فإذا كانت إرادة الإنسان تتحكم فى عواطفه بالصيام أو بعبارة أخرى بالامتناع عن الطعام ، والملذات الأخرى ، فإن هذه التجربة النفسية رياضة على كبح جماح النفس عن أية عادة وأى نوع من أنواع الرذيلة أو النقائص الأدبية .

الوجهة الطبية

كثير من الناس يأكلون استمتاعاً بالأكل لا سدًّا لحاجات الطبيعة ، لأن جسم الإنسان كالآلة البخارية تماماً أو كالسيارة : تستهلك من الوقود بمقدار المسافة التى تقطعها ، فإذا استهلكت الآلات وقوداً أكثر مما يلزمها ترسّب الفحم على جوانبها المختلفة ، وهذا ما يحدث تماماً فى الجسم ، فإذا أكل شخص أكثر مما تستلزمه حاجته فإما أن يسمن ويزداد وزنه ، وإما أن يتعرض لأمراض أخرى .

١ — فالسمنة والضخامة مرض أكثر ما يكون من كثرة استهلاك الطعام دون عمل مجهود عضلى . ومن التضخم تتأتى أمراض السمنة والنقرس والاستحالات الشحمية فى الجسم . ولست أعنى بذلك أن تعكف النساء مثلاً على الجوع حباً فى النحافة فإن النحافة فيها تعريض لأمراض الضعف ومن الصعب على الشخص العادى أن يتبع النظام الغذائى لاحتياج الجسم إلى عدد خاص من وحدات الحرارة . ولكننا نعطى القارئ فكرة عن النسبة بين الوزن والطول ، إذ أن أحسن نسبة أن يكون وزن الإنسان بالكيلو جرامات معادلاً لطوله ناقص ١٠٠ سنتيمتر

فالذى طوله ١٦٠ سم أحسن وزن له ٦٠ كيلو

والذى طوله ١٧٠ سم أحسن وزن له ٧٠ كيلو وهلم جرا .

ومن هنا فائدة الصوم لضخام الأجسام ، ولكنا نرجو ألا يستعيضوا عن الجوع بأكلة مشبعة أكثر من اللازم .

٢ — التخلص من الخلايا الضعيفة فى الجسم .

الجسم الإنسانى دائم التغيير ، ففيه خلايا تبيد وغيرها يتجدد . وفى حالة الجوع تبيد معظم الخلايا الضعيفة ويتجدد غيرها . ولذلك يشعر كثير من الناس بشىء كثير من القوة عقب شهر الصوم .

٣ — التخلص من مرهقات الجسم .

فى حالة الصوم يقلع الإنسان عن كثير من عاداته الضارة بجسمه كالدخان والقهوة والمنبهات . وبعض أنصاف المسلمين يمتنعون فى شهر الصوم بتاتاً عن الخمور والمحرمات ، وبذلك يعطون أجسامهم فرصة للراحة وتجديد القوى .

٤ — يستعمل الجوع كعلاج ناجع فى الأحوال الآتية :

التخمر المعوى المصحوب بتخمر فى المواد الزلالية والنشوية ، فأنجع علاج لهذا المرض هو الصوم لأن الفترة بين الأكلتين تكون طويلة جداً مع أخذ العلاج الذى يصفه الطبيب .

٥ — وهناك كثير من حالات ضغط الدم ليس لها سبب ظاهر ، ومثل هذه الحالات تكون مصحوبة بزيادة فى وزن المريض ، وأنجع علاج لها هو الصيام .

٦ — البول السكرى :

كانت طريقة العلاج قبل اكتشاف الأنسولين — الصيام . على أن الصيام بعد اكتشافه ما يزال ضرورياً للمرضى بالبول السكرى . فالملاحظ أن استعمال الأنسولين جعل كثيراً من الناس يظنون أنهم ما دامو يستعملونه فإن لهم الحق فى أن يأكلوا ما يشاءون . والواقع أن علاج السكر مبنى على طريقة تخفيض نسبة السكر فى الدم وفى البول ، وإعطاء ما يتناسب من الأنسولين لذلك ولكن هذا لا يعنى أن يندفع الناس فى الطعام كما يشاءون ، بل إن التغذية ينبغى أن تظل لها نسبة خاصة أيضاً .

٧ — أمراض النقرس (أي حمض البوليك — الأملاح) .

قد يكون منشأ هذه الأمراض كثرة استهلاك اللحوم أو من تغييرات فى نفس الجسم ، فالأسباب الخارجية التى تأتي من الطعام تتحسن دائماً بالصوم

٨ — أمراض القلب المصحوبة بالتورم والالتهاب الكلوى .

هذه الأمراض ينشأ عنها أوزيما أو تورم وتتحسن بالصيام مع إعطاء الطعام المناسب .

وأخيراً نقتبس فقرة من كتابات صديقنا المغفور له الدكتور عبد العزيز باشا إسماعيل ، قال :

« لقد ظهرت إحصائيات لا تقبل الشك فى أن زيادة السمن يصحبها البول السكرى وزيادة ضغط الدم الذاتى ، والتهاب المفاصل المزمن وغير ذلك ؛ ومع قلة الوزن يقل الاستعداد لهذه الأمراض بالنسبة نفسها ؛ وهذا هو السر فى أن شركات التأمين لا تقبل تأميناً على الأشخاص الذين يزيد وزنهم إلا بشروط تثقل كلما زاد الوزن ، والصيام مدة شهر كل سنة خير وقاية من هذه الأمراض .

وهذه الأمراض تنتشر مع زيادة الحضارة والترف فقد انتشرت فى أوربا أكثر مما كانت عليه فى الماضى ، وفى مصر يكاد يكون البول السكرى وزيادة ضغط الدم مقصورين على الطبقات الوسطى والعليا ، وقليلاً ما يصيبان الفقراء .وأغلب الظن أن ذلك هو السر فى أن الصيام فى الإسلام أشد منه فى الأديان السابقة ، لأن الإسلام هو آخر الشرائع السماوية ، وقد جاء فى زمن نحتاج فيه إلى الوقاية من أمراض تزداد كلما زاد الترف »

ونضيف إلى رأى الدكتور الكبير أن الصدمات العصبية فى البلاد المتمدينة أكثر منها فى البلاد الساذجة ، وهناك مثل فى أمريكا يقول : « إن البول السكرى ترتفع نسبته كلما هبطت أسعار البورصة » فالإرهاق في العمل من مشجعات هذا المرض ، ولا شك فى أن شهر الصيام فترة للراحة من الأعمال ، والتفرغ للعبادة ، فيها كثير من الاطمئنان للنفس التى تهجر مشاغل الحياة . فهو راحة فكرية وراحة جسمية . وأخيراً أذكر أن الفضل فى لفت نظرى إلى هذا المعنى يرجع إلى المرحوم أخى الشاعر الكبير محمد الهرواى الذى له علىَّ الفضل الأدبى الكبير

وربما سائل يقول : ولكن الصيام فى كل هذه الحالات يحتاج إلى إرشاد طبيب فى كل مرض على حدته ، والصيام الذى كُتب على المسلمين إنما كتب على الأصحاء ، وهذا صحيح . ولكن فائدة الصيام للأصحاء هى الوقاية من هذه الأمراض ، وخصوصاً الأمراض التى جاء ذكرها فيما سبق .

وهذه الأمراض كلها تبتدئ فى الإنسان تدريجياً بحيث لا يمكن الجزم بأول المرض ، فلا الشخص ولا طبيبه يمكنهما أن يعرفا أول المرض ، لأن الطب لم يتقدم بعد إلى الحد الذى يعرف فيه أسباب هذه الأمراض كلها ؛ ولكن المؤكد طبعاً أن الوقاية من كل هذه الأمراض هى فى الصيام ، بل إن الوقاية فعالة جداً قبل ظهور المرض بوضوح .

صوت الضمير فى الجرائم الخلقية

القول بالقضاء والقدر لا يبرر الخطأ ما دام العقل سليماً

[وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا ، والله أمرنا بها ، قل إن الله لا يأمر بالفحشاء . أتقولون على الله ما لا تعلمون]

فى هذه الآية ملخص النتائج التى وصل إليها علم التناسليات ، وتكوين الإرادة والتربية الأخلاقية ، وعلم النفس القضائى .

فالإنسان بغريزته مدفوع إلى الإكثار من التناسل ، على أن يكون هذا الإكثار محدوداً بقوانين الآداب والعرف والشرائع السماوية والوضعية

ولتفسير هذه الآية يجب الإلمام بمباحث علماء التناسليات ، ومن هؤلاء العلماء تجار يجعلون مباحثهم استهتاراً بالآداب ، وترويجاً لبعض العقاقير ،

ومنهم من يصف الطرق المختلفة لتهذيب هذه الغريزة .

وملخص هذه الآراء أن الغريزة التناسلية هى مصدر الغرائز ، وسر النجاح إذا أمكن ضبطها ، وتحويل نزعاتها إلى ما ينفع المجتمع ويفيده

فإذا كانت الغريزة التناسلية لها قوانينها ولها مطالبها فليس معنى ذلك أن تكون أداة استهتار وهدم لأسمى عواطف الإنسانية ، وسر المحبة العائلية

وإذا كانت بعض الأمم لم تقيد الزواج وأباحت التزاوج المؤقت على أن يكون النسل ملكاً للدولة أو للأمة فقد ثار العالم على مثل هـذا النظام الذى عف عنه الحيوان ، والذى ظهر أن سببه راجع إلى تسلط أفراد على أمة يريدون استغلالها فحكموها بسلطان الأباحية والغريزة

ويهمنا من الوجهة الطبية من هذا البحث انتشار الأمراض السرية بين الناس . لأن قيود الزواج هى التى تجعل نقاء النسل مضموناً ، أو تجعل العلاج ميسوراً على الأقل

وكذلك قوانين الوراثة تجعل الناس أشد احتراساً عند انتخاب الزوجة أو الزوج .

وهناك مضار اجتماعية أخرى من انتشار الفاحشة ، وهى عدم الزواج وبهذا تنعدم عاطفة الأبوة والعاطفة العائلية ، مع أننا نراها فى الحيوان . فالطيور تتزاوج وليس فيها بغاء . وكذلك فى الحياة الوحشية كالسباع يعيش الذكر مع الأنثى فى عرين واحد . أما الحيوانات الدنيئة ، أو التى تربى استجلاباً للثروة فيكتفى لكثير من أناثها بذكر واحد .

على أن المهم فى الموضوع هو أن المستهترين يريدون أن يدّعوا أن كل شىء فى العالم فرض على الناس قضاء وقدراً ، وأنه مكتوب عليهم فعل

ما يفعلونه من الخير والشر . وعلى هذا يريدون أن لا يتحمل العقل الإنسانى أية مسؤولية فى التصرف .

ومسؤولية العقل الإنسانى وتحمُّله نتائج عمله أصبحت مسألة مسلماً بها . فالسارق مثلاً مسؤول عن السرقة ، والقاتل كذلك ، وليس من العقل فى شىء أن نعمل العمل مختارين ونعرف أننا مسئولون عنه ثم ننسبه إلى القضاء والقدر . فالإنسان فى الواقع قد زود بالعقل والفهم فإذا لم يستعملهما كان عليه عاقبة وزره . ومن المدهش أنك ترى الناس لا يتباحثون فى القضاء والقدر إلا عند عدم الاحتياط ، أو الإسراف أو الاستهتار . فمن نجح فى سبل الحياة عزا ذلك لنفسه ، ومن أخفق أنحى باللوم على الأقدار .

والآن بعد أن وضحت قوانين الطبيعة إلى حد كبير ، وعُرفت الأمراض والنزعات الإنسانية ووسائل تكييفها ومعالجتها ليس من الصواب فى شىء أن ننسب تصرفاتنا إلى قوة قاهرة ، أو نستكبر على الله فندعى أننا خلقنا على غير ما نريد .

فالإنسان كالآلة الميكانيكية أو كالسيارة ، والعقل هو الذى يديرها ويوجهها . وليس من الصواب أن يقول من أخطأ القيادة متعمداً إن هذا هو القدر لأنه يعلم قوانين القيادة . ولكنه أراد مختاراً أن لا يسير فى نطاق القانون والواجب .

على أن هذا يجرنا إلى مسألة نفسية أخرى ، وهى لماذا يعزى الناس كل خطأ للقضاء والقدر مع أنهم يعرفون أنهم مخطئون ؟

وشرح هذا بسيط : إذ أن الضمير الإنسانى حساس عند ارتكاب الإثم ، فهو يعلم تماماً أنه أخطأ مختاراً ، فينحى باللائمة على الشخص ، وهذا ما يسميه الناس « تأنيب الضمير » .

فإذا شغل هذا الضمير بالتأنيب المستمر ، حدث للشخص قلق عصبى ،

ولا بد للنفس الإنسانية أن تتخلص من هذا الوزر أو هذا التأنيب المستمر ؛ ولذلك تتلمس لنفسها عذراً يريحها من هذه الاضطرابات ومن « تأنيب الضمير » ، فتلجأ إلى هذا التخلص بإلقاء الوزر على غيرها ، ولا تجد وسيلة أخرى تقولها إلا أن النفس مُجبرَةٌ على ذلك .

ومثل النفس الإنسانية فى ذلك مثل السارق الذى يقف متهماً ومتلبساً بالجريمة ويحاول أن يخدع القاضى ، والقاضى يكتشف الخدعة بعد الخدعة ؛ ولذلك يلجأ اللص إلى القول بالقضاء والقدر أخيراً ، استجلاباً للرحمة ، واستشفاعاً بالله ؛ ومع ذلك ، فالقاضى يحكم عليه .

هذا هو تفسير الآية على ما يقوم عليه علم النفس الآن .

ولا شك أن هناك أمراضاً نفسية تناسلية أخرى قد تلجئ الشخص إلى الاعتداء والجريمة ، ولكن المرض فى هذه الحالة يُخْرِج الشخص عن إرادته .

ولقد قَسمت مباحث الإجرام من الوجهة النفسية هذه المواضيع إلى فئات كثيرة يطول شرحها ، وخلاصتها أن العقل ما دام فى الحدود الطبيعية فهو مسئول . أما الحدود غير الطبيعية ، فلها مباحثها ونتائجها كما يقرر علماء هذا العلم .

ونعود إلى رد القرآن على العقل الإنسانى الذى يريد أن يتخلص من التأنيب بنسبة الشر إلى قوة قادرة (وجد آباءه عليها) ؛ والله سبحانه يقول : (إن الله لا يأمر بالفحشاء ، أتقولون على الله ما لا تعلمون) ؛ وهذه الفقرة من الآية الكريمة تُحَمِّلُ الإنسان أعماله الإرادية ؛ ولفظة (ما لا تعلمون) تحيل المسألة كلها إلى العلم ، لأن موضعها فى ختام الآية يُقرِّر أن العلم هو المرجع الوحيد لتحديد مسؤولية الإنسان فى الأعمال الإرادية

فإذا كانت إرادة الإنسان وحده هى التى تدفعه للفاحشة ، فإن انتشارها فى العالم هو نتيجة إرادة الإنسان ؛ ولكن الإنسان يقول : إن كل غريزة لها أن تفعل ما تشاء ما دام الله خلقها ؛ وهذا منطق معكوس ، فالأنانية والاعتداء وحب الاستطلاع غرائز . أما الأنانية : فتدفع للسرقة ، وتدفع لقتل المُزاحم ؛ والاعتداء نتيجة طبيعية لحب التسلط ؛ والاستطلاع يدفع الإنسان للاعتداء على حقوق غيره . فلماذا يقتنع الإنسان بعدالة القوانين إذا حمته من اعتداء القوى ، ويغالط فيما يختص بالفاحشة ! ؟

وهنالك نقطة أخرى تبين أن تبجح الإنسان فى المغالطة فى هذه المسألة ليس له حد إذا مست غيره . أما إذا مست شخصه ، فإنه يثوب إلى رشده .

قلت لك : إن تحميل القدر مسئولية الوزر لا يكون إلا من المعتدى نفسه ؛ أما المعتدى عليه ، المسروق ماله ، أو المهان فى عرضه ، فإنه يثوب إلى رشده ويذكر الحقيقة ، وهى : أن الإنسان مختار ، وأنه طوع إرادة نفسه ، لا مسوق بقوة قاهرة .

وهذا يبين حكمة الآية ، وهى تتلخص فى ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : إطاعة النفس لفعل الفاحشة بدافع النفس وحدها .

المرحلة الثانية : معرفة الإنسان أنه أتى ذنباً ومحاولته إسكات ضميره بالتماس المعاذير الكاذبة .

المرحلة الثالثة : أن صيانة الأعراض هى أمر الله ، ولا ينبغي أن نحاول تخليص ضمائرنا على حساب اختراع أسباب غير حقيقية لتبرير عملنا ، ولا يجب أن نقول على الله ما لا نعلم ، بل يجب أن نعلم أن أوامر الله هى للفضيلة ، والخير ، ومصلحة المجتمع الصالح فى ظل الحرية التعاونية

آيات خلق الأرض ونشأة الحياة

سورة الأنبياء الآية ٢٩ :

(أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانت رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حى) .

المعنى المفهوم من هذه الآية أن الأرض أصلها من السماء ، والسماء كلُّ ما علا الإنسان وأظَلَّه ؛ فإذا كان أصلها من السماء ، والسماء فضاء ، فهى إذن جزء من كائن فى السماء ، أى من الشمس باعتبارها مصدر الكواكب الشمسية .

وتختلف هذه الآية تمام الاختلاف مع أول آيات سفر التكوين التى تقول : (فى المبدأ خلق الله السموات والأرض ، والأرض كانت خربة وخالية ، وعلى وجه القمر ظلمة ، وروح الله يرف على وجه الماء) .

فآية القرآن الكريم يبدأ فيها تاريخ الأرض منذ انفصالها عن الشمس وهو أول مولدها الحقيقى ؛ أما آية سفر التكوين فيبدأ فيها تاريخ الشمس منذ برودتها واحتوائها على الماء بعد البرودة ، وهذا تاريخ متأخر

ثم إن آية القرآن أشارت إلى أنه بعد انفصال الأرض عن الأرض بدأت الحياة على سطحها من وجود الماء ، وذلك لأنه هو أهم العناصر للحياة إن لم يكن مصدرها .

ولم يفكر أحد منذ نزل القرآن فى هذا التفسير حتى جاء « لبلاسى » (١٧٤٩ — ١٨٢٧) الذى كان أول من قال بأن الأرض جزء منفصل عن الشمس .

ثم راجت بعد ذلك نظريات أخرى ترد أصل الكواكب كلها إلى السديم ... ومهما تغيرت النظريات واختلفت الآراء ، فمنبع الكون هو الشمس بدليل التحليل الكيماوى بواسطة الطيف الشمسى والخطوط المتصة ، مما أثبت أن الأرض والشمس من مادة واحدة ، وكذلك النيازك .

ولقد أصبح تركيب الأرض الكيماوى والشمس معروفاً فى الكتب الخاصة ، فلا داعى لتكراره هنا لأنه صار من المعلومات العامة ، اكتفاءً بذكر النتيجة ، إذ أن الشرح يطول ويخرج عن نطاق هذا البحث .

أما النقطة التى ما زالت غامضة ، فهى ظهور الحياة على وجه الأرض ، وكيف نشأت بعد أن بردت الأرض ، وتكاثفت الأبخرة فصارت ماءً ، وتيبست قشرة الأرض فصارت قارّات . إن من ينظر إلى الخريطة يجد ساحلى غرب أوربا وأفريقيا الغربيين فيهما نتوءات وتضاريس تكاد تتداخل تماماً مع الساحل الشرقى لأمريكا الشمالية والجنوبية لو تصورنا التصاقهما ، وكذلك نجد الساحل الغربى لهاتين القارتين مع الساحل الشرقى لآسيا .

وقد يطول الشرح جدًّا إذا ما أردنا الإحاطة بتاريخ العصور الجليدية التى عمت العالم ، وبكيفية تكوّن الأحجار الجيرية من طغيان البحر على اليابسة ...

هذه مواضيع طويلة ومعلومات لها مراجعها ، وإنما الذى يهمنا منها هو نشأة الحياة ، فمن المسلم به أن الأبخرة التى تكاثفت على الأرض فى أول الأمر كانت ماء عذباً ، والنظرية المعترف بها الآن أن الحياة دبت على شكل كائن حى له خلية واحدة لا يمكننا تمييزه إذا كان حيوانيًّا أم نباتيًّا ، وهى الخلية المعروفة بالأميبا ، فى العرف الطبى هى وحدة الخلية الحيوانية ، وهى أصغر الأحياء من الوجهة الحيوانية .

ولنلخص الآن النظرية العلمية ونقارنها بالآيات القرآنية :

النظرية العلمية

١ — انفصلت الأرض من الشمس
٢ — بردت الأرض ، وتكاثف الماء ، ودبت الحياة
٣ — دبت الحياة على الأرض بين الماء واليابسة
٤ — تطورت الحياة بعد أن نشأ أول نبات ، ثم وجدت الحيوانات فالإنسان .

الآيات القرآنية

(١) « أنَّ السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما »
(٢) « وجعلنا من الماء كل شيء حي »
(٣) « واللهُ أنبتكم من الأرض نباتاً »
(٤) « وخلقناكم أطواراً »

بقيت نقطتان :

الأولى : أن الكتب العلمية تفرض أن أول دبيب للحياة على الأرض كان على شكل الأميبا ، وهي إما حيوان أو نبات من خلية واحدة ؛ ولكن وجود جراثيم أقل منها حجماً بحيث يُرى بعضها بالمجهر ، وبعضها لا يمكن رؤيته بل يمكن ترشيحه أو لا يمكن ، كل هذا لا يجعل أي فرض علمي الآن يمكن أن يحل هذا الغموض ؛ والنظريات كلها مبنية على الظن ، خصوصاً الآراء التي تتعلق بالجراثيم التي لا تُرى بالمجهر ، وهل هي جراثيم أم لا ؟

والنقطة الأخرى : أن الجراثيم الدقيقة تتوالد بالانقسام ، وليس لها ذكر ولا أنثى (*) .

كما أن هناك إلى جانب هاتين النقطتين مسألة الروح ، وهى تراث « آدم » من الجنة

ولقد علل المرحوم الدكتور عبد العزيز باشا اسماعيل جهل الإنسان بهذه المسائل بأنه لم يعطَ الحاسة التى تؤهله لإدراكها ، لأن حواس الإنسان مسخرة لخدمته فقط ، وليست مخلوقة لإدراك أكثر من ذلك .

ونضيف إلى ذلك رأينا الخاص ، وهو أن الإنسان أشبه شىء بالآلة التى تدار بالكهرباء ، أو كالجيوش فى حالة الحرب . فالآلات فى المصانع تستمد التيار من مركز رئيسى من المحركات ، والصانع الذى يشتغل على هذه الآلة يجهل ما يجرى فى محطة الكهرباء ، والجيوش التى تتحرك فى ميادين القتال لا تعرف خطط القيادة ، بل تنفذ تعليماتها فقط وهى تجهل الخطة نفسها ، وتجهل الشخص الذى أوحى بها ، فالضابط والجندى فى الميدان يكلفان بتنفيذ الخطة الموضوعة ، أما كيف وُضِعت هذه الخطة ، وما هى نهايتها ، فليس لهم الوسيلة إلى فهمها ، وربما كان من صالحهم أن لا يعرفوا . فهم يتحركون كما يسير الإنسان فى الحياة ، فى خطة مرسومة ، واختيارهم دائماً محدود .

هذه هى الحقيقة ، ولكن الإنسان إذا فكر فى كيفية خلقه ، فهو كالجندى الذى قد يستنتج خطة القيادة فى تيسير دفة الحرب . ومع ذلك ، فمن المستحيل على هذا الجندى أن يعرف خطتها فى ميدان غير ميدانه ،

(*) فى مقدمة هذه الرسالة أشار الدكتور على شوشة بك إلى هذه النقطة .

أو ما تدبره القيادة العليا للموقعة الحاسمة . وعلى ذلك فلننظر فى آيات الخلق بعد ظهور الحياة .

آيات علم الحياة

الرحمن : « من كل فاكهة زوجان »

الرعد : « ومن كل شيء خلقنا زوجين » . « وجعلنا الرياح لواقح »

يس : « سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ، ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » .

ترتبط هذه الآيات بالآيات التى سبقت في الخلق بعد آية « وجعلنا من الماء كل شيء حى » وهل خلقت النباتات والحيوانات منفصلة عن بعضها ، أم إن هناك ارتباطاً بين تكوينها وعلاقتها بالأرض والماء ؟

لقد دل علم الحياة على أن الكائنات الحية تنقسم إلى ذكر وأنثى سواء فى النبات أو الحيوان ، وقد تكون هذه الأعضاء مستقلة فى الأفراد فى الحيوانات العليا ، أو النخيل فى النباتات ، كما قد تكون أعضاء التذكير والتأنيث فى عود واحد من النبات كالذرة مثلاً ويحصل التلقيح بواسطة الهواء ، وهذا إعجاز الآية « وجعلنا الرياح لواقح » ومنها نباتات كالطحلب تنمو بالانقسام ثم يأتى دور التزاوج فينشئ النبات ويتداخل على نفسه ويصير نصفه ذكراً والنصف الآخر أنثي ثم يتداخل فى بعضه ثم ينفصل ثانية فيتجدد نشاطه التناسلى .

يشذ من هذه القواعد من النبات والحيوان ما كان ذا خلية واحدة إذ يتكاثر بالانقسام .

والله يقول : إن فيها ذكراً وأنثى فما كان معروفاً علمياً فقد فهم ، أما غير المعروف علمياً فله تعليلات علمية لم نعرفها بعد

فقد علمنا أن من الحيوان أو النبات ما يُرى بالمجهر وما لا يرى ، وما يسمونه غير المرئى تحت الميكروسكوب .

وهذا دليل على أننا لم نعرف كل عالم الجراثيم ، كما أنه لا توجد طريقة لإثبات الذكر والأنثى فيها .

وربما كانت نواة الخلية الواحدة من عنصرين ذكر وأنثى مندغمين فى بعضهما ونحن لا ندرى ، وليس لدينا من الطرق ما يؤهلنا لإثبات ذلك على أن الله سبحانه قد أشار إلى ذلك بقوله : (ومما لا يعلمون) . هذا تفسير . ويوجد تفسير آخر لمثل هذه الآيات نشأ عن التقدم العلمى الحديث فى الكيمياء . فقد رأى بعضهم صعوبة تصور وجود الذكر والأنثى فى الخليات الدنيئة التى تتوالد بالانقسام ، وصعوبة تصور أنه من الجائز أن تكون الخلية الواحدة ذات النواة الواحدة تحتوى على بذور التذكير والتأنيث فى نفس هذه النواة . ولكن قد تكون درجة تلوين النواة أو تشعب توزيع المادة الملونة يدل على وجود جزءين فى النواة الواحدة .

على أن دراسة انقسام نواة الخلية الواحدة وانقسام النواة إلى جزءين مسألة معقدة ، فالنواة تنقسم إلى أجزاء ، وتنجذب إلى قطبين ، ثم تنفصل إلى خليتين ، وهذه العملية الجوهرية لا تزال تحت نظر العلم

ولا شك فى أن دراسة انقسام الخلية من الدراسات التى هى فوق هذا التبسيط الذى نلجأ إليه في هذه الرسالة ، ولكن على أية حال نرى أن اختلاط مادة النواة بعد أن تنقسم إلى أجزاء ، ثم انفصالها انفصالاً تاماً يدل على أن هناك نوعاً من التلقيح الذاتى فى الحيوان أو النبات ذى الخلية الواحدة ؛ وإذا وجدت ظروف لم تهيئ لنا دراسة انقسام النواة والقطبين

اللذين يظهران فيها قبل الانقسام ، فقد يكون السبب أن وسائلنا الفنية لم تهيئ لنا معرفة نوع أجزاء الخلية ودقائق أسرار النواة .

أما فى الجماد ، فقد عمت الآن نظرية « الألكترون » و « البروتون » فالذرة الواحدة مكونة من جزيئين : أحدهما موجب والثانى سالب ، وبالتجاذب الكهربائى تتكون الذرة . وهذا يفسر أيضاً لفظة «شىء» فى آية (من كل شىء زوجين) وإذا طبقنا أيضاً نظرية أن العناصر كلها من عنصر واحد وأن الاتحاد الكهربائى بين جزيئات العناصر وعدمه هو الذى ينتج عنه تغيير أنواع العناصر وتعددها لكان الارتباط الكهربائى بين (السالب والموجب) أو (الذكر والأنثى) هو الأساس الذى يقوم عليه العالم سواء فى الأحياء والنباتات أو الجماد ، وتكون هذه الآيات الكريمة قد سبقت التفسير العلمى وهيأت الأذهان لمعرفة هذه النتائج الخطيرة الباهرة .

يوم القيـامة

القارعة : « يوم تـكون الجبال كالعهن المنفوش »

« إذا زلزلت الأرض زلزالها . وأخرجت الأرض أثقالها »

« هل أتاك حديث الغاشية »

« إذا السماء انشقت وأذنت لربها وحقت . وإذا الأرض مدت ، وألقت ما فيها وتخلت »

هذه بعض الآيات التى تصف يوم البعث ، أو آخر أيام الدنيا . وهذا الوصف بأنها قارعة تنشق لها السماء فتزلزل الأرض زلزالها ، وتخرج الأرض أثقالها وتتخلى عن حملها فى يوم تكون فيه الجبال كالعهن المنفوش — هذا الوصف ينصب على أن نهاية الدنيا هى نتيجة اختلال توازن الجاذبية الـكونية فيما يتعلق بالأرض ، فتَـخْـرُج عن نطاق سبحها فى الفضاء اللانهائى فتسقط

واختلال توازن الجاذبية الـكونية مشاهد كل يوم ، وسقوط النيازك وهى حطام الـكواكب مسألة معروفة ، وفى الـكتب الفنية الخاصة وصف لـكثير من النيازك التى سقطت ، ويوجد بالمتاحف المصرية قطع كثيرة من هذه النيازك .

وعلى ذلك فعلماء الفلك يقدرون أن نهاية العالم تكون بأحد أمرين : إما البرودة بفناء حرارة الشمس ويقدرون لها ملايين مختلفة من السنين ، وإما باختلال التوازن الـكونى بسقوط جرم جديد من الشمس أو اختلال يحدث نتيجة عدم توازن النظام الشمسى لأسباب مختلفة يطول شرحها ويمكن الرجوع إليها فى مصادرها .

ولكن القرآن يقول إن نهاية العالم ستكون باختلال التوازن فى النظام الشمسى ، لأن كلمة القارعة تفيد تصادم الكواكب . وكون الجبال تستحيل إلى شبه عهن منفوش دليل على الاحتراق . والزلازل دليل على ارتجاح الكون فيتشقق وتسقط الأرض وما عليها فى الفضاء : (ألقت ما فيها وتخلت) .

ومن البيّن أن مباحث « نهاية العالم » حديثة ؛ ولكن سردها على هذا النحو الفنى فى القرآن الكريم صورة من صور الإعجاز فى تحديد النهاية !

(تمت الرسالة)

الكتاب القادم

الذى ستهديه الأنصار لمشتركى هذا العام الهجرى

سنة ١٣٦١

عنوانه :

« الرجعيه الفرعونيه فى صورها المختفله »

موضوعه :

تصوير شقاء الشعب المصرى فى أيام الفراعنة
والاستدلال على هذا الشقاء من الآثار القائمة
وتفنيد مزاعم «المتفرعنين» عن الفن واللغة والوطنية

صاحبه :

هو رجل التربية والتاريخ ... الأستاذ « ش . ع »

يقرأ القارئ فى الكتب التى ستهديها مجلة الأنصار لقرائها فكرة الجيل المسلم الجديد

الأنصار

مجلة الفكرة العربية والثقافة الإسلامية

البلاد العربيه وطن واحد

ففى أى مكان تكون فى هذا الوطن لا تتغير قيمة اشتراكك فى مجلة الأنصار

مطبعة الرسالة — عابدين . القاهرة